

القسم الرابع :

فكرة الاتحاد تواجه المصاعب

١ - فكرة الاتحاد الفرنسي قديمة ، عبر عنها جبريل هانوتو بقوله :
وحدة الامبراطورية . وحدة الإدارة والتشريع والعمل . وحدة
الشعور والارادة الحرة . ليست بالعنف والقوة والفتح ولكن
بالميل والترغيب تتم الوحدة الفرنسية . وتتميز آراؤه بخطورتها على
الأمم المغلوبة ، وأثرها في نفوس الفرنسيين وسرعة تغاغلها في أوساطهم

٢ - جبريل هانوتو من كبار رجال فرنسا ، ظهرت مزاياه وشخصيته
في أعماله وكتابه وأقواله . فإذا هو يؤثر في جيل بأكمله من الناس
كتب كثيرًا عن تاريخ فرنسا وأمجادها ، وعرف الناس ما لم يعرفوا
عنها ، وكتب عن تاريخ الأمة المصرية ، وأشرف على إخراج كتاب
على الأسلوب الذي يروقه والمستشرقين . وهو رجل دائم الانتاج
فلم يترك عملاً من أعمال الخلق إلا كتب فيه ، ولا نشاطاً إلا جال

فيه وصال . كان من أولئك الذين يعملون بالمثل اللاتيني القائل (١):

Homo sum Humani Nihil a me alienum puto

(إني بشر ويخيل إلى أن لاشيء فيما يتعاق بالإنسان غريب

عنى .)

فكان من الطبيعي والضروري أن يلفت الاستعمار الفرنسي أنظار الشيخ ولذلك كتب فيه وأطال وهو القائل في كتاب له عنوانه (من أجل الامبراطورية الفرنسية)

هل ترغب فرنسا أن تحيا حياة الأمم الفتية الناهضة ، أم ستلحق
بغيرها من الأمم الفانية التي ذهبت ريحها ؟

هل ستفنى كما فنى بيزنطة ؟ وهل تتبع قرطاجنة وتلقى مصيرها ؟
إذا عاشت فرنسا بعظمتها وقوتها وأجادها وهذا مالا شك فيه
(هذا قوله هو) فلتكن متجهة بنشاطها وفكرها وعبقريتها إلى
مستعمراتها .

هناك تبرز شخصيتها الخالقة المبدعة وتنمو علائقها مع تلك
العائلة التي جمعها حولها . عائلة المستعمرات الفرنسية .

(١) من أظرف ما ترك مفكرو العرب في هذا المعنى قول الجنيد بن محمد الجنيد
الزاهد المعروف ما اخرج الله الى الناس علماً وجعل لهم اليه سبيلاً الاوجمل
لى فيه حظاً ونصيلاً

كانت صحيحة وبرناجما قذف بهما هذا الشيخ الفاني فتأقفهما رجال الاستعمار قال هذه الكلمة بعد أن أمضى السنين يدرس ويبحث ويقيد ويسجل .

وخطر هانوتو أنه رجل من رجال الفكر والدهاء ، يجمع بين البحث والعلم والفلسفة ينظر للاستعمار نظرة المحلل الطاغية الذي لا تتطرق الرحمة إلى قلبه .

كان هانوتو داهية من دهاة الفرنسيين تلمس روحه وأنفاسه في كل جهة ، دون أن تظهر شخصيته ، فهو من أولئك الذين يضعون الخطط لبلادهم مدى سنوات بعيدة ، ويرسمون لحكوماتهم برامج السير مع الأمم التي نكبت بالاستعمار ، وهو مثل من كثير غيره ، ولكن لكثرة ماقرأت عنه أراني في حل إذا وضعته في صف دو فرين السفير البريطاني في اسطانبول وملتر صاحب المشروع المشهور وكلاهما من دهاة الاستعمار البريطاني الذين وضعوا الخطط الطويلة المدى لبلادهم . ولا تزال نحن بمصر نجاهد للخروج من نطاق تقرير دو فرين من الشؤون الدستورية ونكافح للخروج من دائرة ملتر في الناحية السياسية .

ولا تعجب من تمرير ذلك . فإن الاستعمار الأوربي في نكباته ومصائبه لا يعد شيئاً بجانب مقدرته على التطور ، والظهور بألوان

(١) وضع هذا التقرير قواعد الاصلاح والتوجهات للسياسة البريطانية .

مختلفة ، وهو أكبر نشاط إنساني قام به البشر منذ الخليفة إلى اليوم بل هو دعامة المدنية الحالية ومظهر قدرتها وتفوقها . بل لا نبالغ إذا قلنا إن مظاهر الترف ومستوى الحياة الراقية لدى جماعات من الأوربيين سوف تنهار أو تهبط بتفكك الروابط بين بلادهم والمستعمرات ، ولذلك نجد الدول الأوربية اليوم أشد تمسكاً بهذه الروابط من أى عهد مضى . ونرى أنها نجتهد أن تسالم الحركات القائمة وتسارها وتخضع لبعض مطالبها ، حتى تحتفظ بما لها من سيطرة على هذه الشعوب .

وهذا الاتجاه هو أخطر ما يواجه الأمم الإسلامية الناشئة لأننا لن نتغلب على الاستعمار إلا إذا فهمنا هذا النوع من العمل الإنساني^(١) ، ولن نصل إلى الخروج عن نطاقه إلا إذا بعث الله لنا من أنفسنا رجالاً أقوياء أشداء ، يدفعون عنا ويلا تهم بعزيمتهم وقوتهم ولهم من الفكر والمضاء في الحق ما يمكنهم من نقلنا من حالتنا التي نحن فيها ، إلى حالة تقرب من المنطق والمعقول ، أو تكون أقرب إليهما من الحالة التي نعيش فيها اليوم .

وأعود إلى هانوتو فأقول : إنه قد لا يكون أول من نادى بفكرة الاتحاد الفرنسي ، فقد يكون هناك غيره ممن تقدمه وسبقه ولكنني أعجب به من ناحية أنه من فلاسفة ومفكرى الاستعمار ، الذي لمسوا تقدم الدنيا ، وتذهبوا لما قد أتى به الأيام ، فتقدموا بأراء ومشاريع وأفكار لم تكن بعيدة عن الحقيقة .

(١) نسبة إلى الانسان لا إلى الانسانية .

ثم هو مع دهائه وفكره وبصيرته لم تشغله مظاهر الدنيا والثراء وحب النفوذ كما شغله حب بلاده ، ورغبته في بقائها تتحكم على ربوع المستعمرات وفي رقاب أهلها ، وهو حينها يكتب وينشر آراءه وسمومه لايهمه شخصه ، وإنما يؤمن بشيء واحد هو بقاء سيطرة فرنسا على مستعمراتها .

فهو يسلم بأن بقاء الجماعات متوقف على الأنظمة ^(١) التي تربطها وهذه يجب أن توضع على أسس صالحة قوية ، بل إن الأنظمة هي روح الجماعات بقدر صلاحها تصلح الجماعة ، وإذا فسدت أنهار كيان الجماعة .

ولهذا فالامبراطورية في نظر هؤلاء كائن حي ، يجب أن يعيش وينمو ، وإن قوته مستمدة من الأنظمة التي تربط المستعمرات بالوطن الأم ، وإن أنظمة الحكم يجب أن تتطور مع الزمن حتى لا يعتورها ويصيبها الجمود وهو علة المجتمعات والداء العضال الذي يصيب الامبراطوريات ويقضى عليها ، كما قضى على ملك روما وبيزنطة وغيرهما .

فهذه الفلسفة الاستعمارية لم تقف عند حد النظريات ، بل أخذت تحلق في العلاقات بين الدولة الحاكمة والأمم المغلوبة وتتخذ طريق التجربة والاستقراء في مختلف النواحي .

وحقيقة للعالم هي أن السيطرة الأوربية سواء أكانت فرنسية أو غيرها سادت العالم وشعوبه ، واحتلت المكان الأول وفرضت إرادتها أينما حلت إلا في الجهات التي ساد فيها الإسلام ، فهناك واجهت المصاعب واضطرت أن تسير على حذر وعلى قدر ، ولذلك تلقى الإسلام والعرب أكبر الطعنات في التاريخ ، وفي سبيل هدمه أعطى ذلك اللون البراق للمدنيات القديمة ، التي انقرضت في مصر وبابل واشور وفارس ؛ وهذا يفسر لنا تهجم هانوتو وغيره على العرب وطعنه على تاريخهم ووصفه للإسلام بأنه عدو للعلم والمدنية .

لأن الضعف يوجد تسليماً وخضوعاً . وهذا ما تم في ربوع أفريقية السوداء ، أما حيث ساد الإسلام فقد وقف المسلمون يقارعون الإستعمار وجهاً لوجه وبقي خطر الدعوة المحمدية ماثلاً أمام المستعمرين ، ولذلك كثر أعداؤنا لأننا أقوياء ، والقوى يخلق أعداء لنفسه ، ومن هؤلاء جبريل هانوتو الذي تولى يوماً الإمام محمد عبده دفعه عن الإسلام في كتاب له مشهور ومواقف مشهودة .

ويذكرني هذا بما قرأته في مقدمة كتاب الإسلام وسياسة الحلفاء الذي كتبه أنريكو انسباتو (يقف العالم الإسلامي في مواجهة أوروبا موزعاً بين أملاك الدول المختلفة والقوميات الحديثة يقاوم

بشدة وعنف وعناد معتمدا على وحدته الدينية وصبغته العالمية التي تعطي حركاته مظهراً ينفرد به دون غيره).

وعلى هذا رسمت الخطط لاستبعاد الإسلام ما أمكن من المناطق التي قد يسود فيها وفي هذه الناحية بالذات ظهرت قرارات مؤتمر برازافيل ، تتفق مع قرارات حكومة السودان بشأن التضييق على حرية العبادة ، ومنع تغلغل الإسلام في أفريقية الوسطى ، وهذا مما يجعل للإسلام قضية سوف نعرض لها يوماً لعرضها على الضمير العالمي ولم تكن فرنسا بحاجة إلى إعلان الإتحاد الفرنسي والدعوة إليه ، لو كان الأمر متعلقاً بالمستعمرات الإفريقية وحدها أما الأمر متعلق بشمال أفريقية حيث يسود الإسلام لذلك قامت أمامها العقبات وحشدت القوات للتغلب عليه .

وقد كان من أيسر الأمور عليها فرض الثقافة واللغة والدين والاسماء الفرنسية وإيهام الجنود السود^(١) أن آباءهم من بلاد الغال وانهم فرنسيون دماً وروحاً وفيهم من يصدق ويتحمس لذلك .
أما الإسلام والعروبة بالمرصاد ، هنا يبدو الإتحاد متردداً يسير بخطوات وثيدة ويستنير بأراء هانوتو وغيره ، وفي ذلك يقول صاحب كتاب الإسلام وسياسة الحلفاء :

(أصبح للإسلام سياستان : واحدة استعمارية ، تتعلق بالمستعمرة

(١) كتب شاوشر سنقالي بالجيش الفرنسي موضوعاً تاريخياً فقال « اياتي

من سكان ارض الغال »

وأخرى عالمية تتبعه وتلاحقه في مشارق الارض ومغاربها ، وهما يلتقيان في ناحية واحدة وهي ابعاد الأخطار ما أمكن تلك الأخطار التي يسببها للدول الاوربية وجود ملايين من المسلمين على الارض يمثلون في افريقية خطرا لا يستهان به ، نظرا لازديادهم عاما بعد عام) في القرون الماضية فقدت فرنسا مستعمراتها ، لأن البحر كان فاصلا والمسافات بعيدة ، واليوم تحاول فرنسا فرض إرادتها على اقطار شاسعة ، فاذا الاسلام أبعد غورا من البحار والمحيطات ، وهي لم تقدر عليه ، لأنه من نور الله ولذلك ستسير شعوب الجزائر وتونس ومراكش نحو التحرر والخلاص ، رغم المصاعب التي تقيمها فرنسا وحكوماتها المختلفة ، واتحادها ووحدتها ، لانها شعوب اسلامية عربية قوية لا تلتين .

وها قد استعرضت فرنسا انواع الاستعمار المختلفة ، وبدا لها الاستعمار السوفيتي الروسي بلون خلاب ، وخيل اليها أنه قد قضى نهائيا على نفوذ الاسلام في ربوع اسيا الوسطى ، وفي هذا خطأ كبير ، فأرادت أن تستعين بأساليبه في هذه الناحية وفي بعض النواحي الأخرى ، ولذلك ترغب أن تؤسس اتحادها على شكل يشبه اتحاد روسيا .

[وسنعرض بعض قليل للاتحادين في أول الفصل التالي]